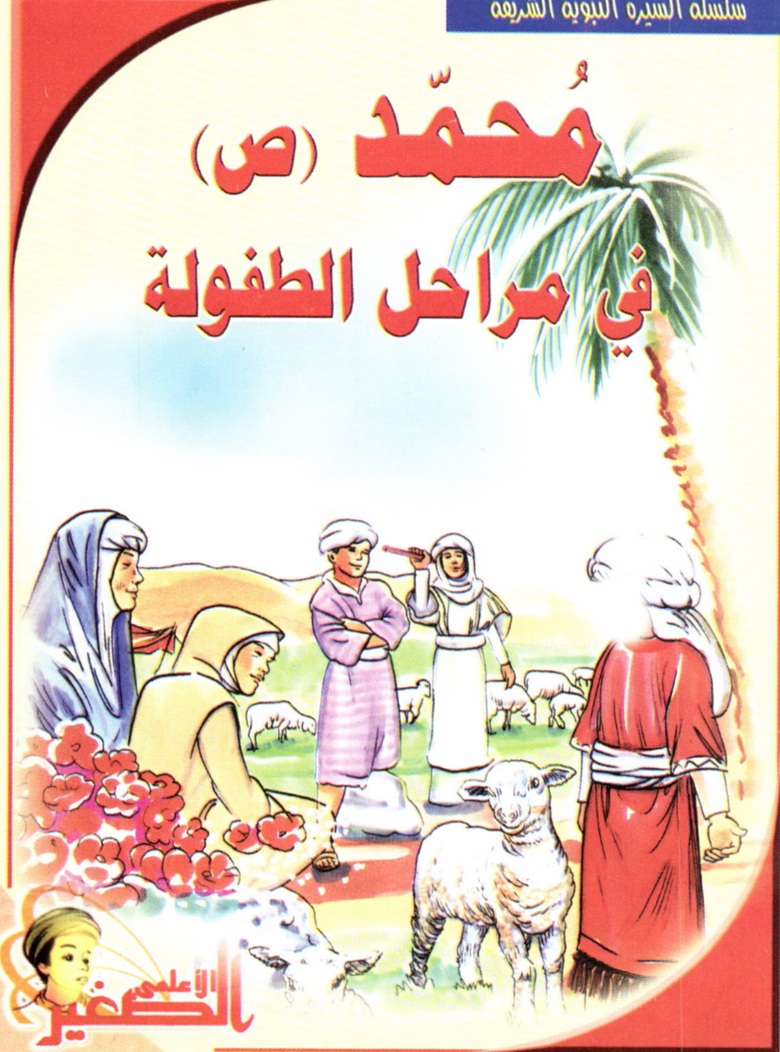
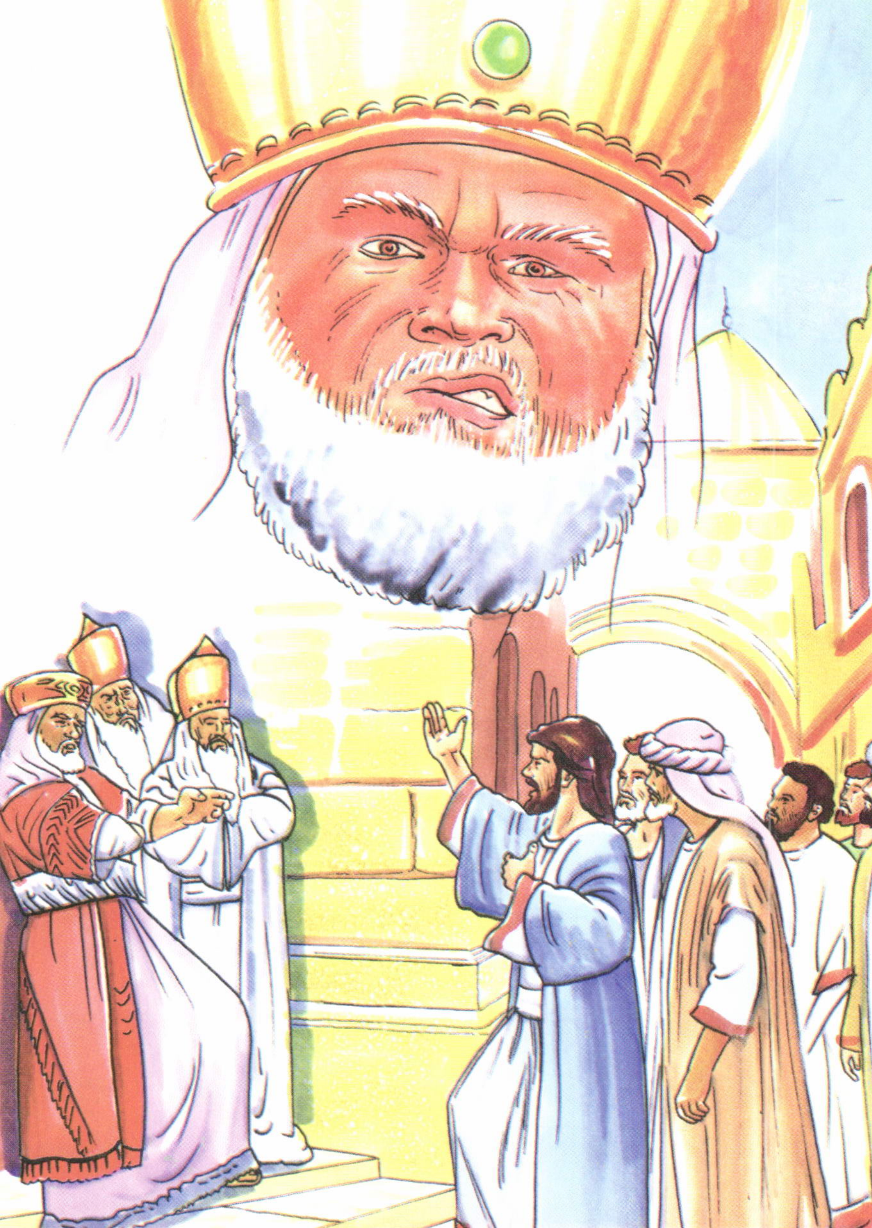

سلسلة السيرة النبوية الشريفة
مُحمّد (ص)
في مراحل الطفولة
الأعلمي
الصغير



لَمْ يَكُنْ ذلِكَ اليَوْمُ كَأَيِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّام حَياةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ سَيِّدِ ساداتِ بَني قُرَيْش، فَأَبْنَاؤُهُ حَوْلَهُ وَعَشيرَتُهُ تُشارِكُهُ فَرَحَهُ العَظيمَ بِحَفْلِ زَفافِ وَلَدِهِ الأَصْغَرِ مِنْ أَبْنائِهِ الْعَشْرَةِ: عَبْدِ اللهِ.

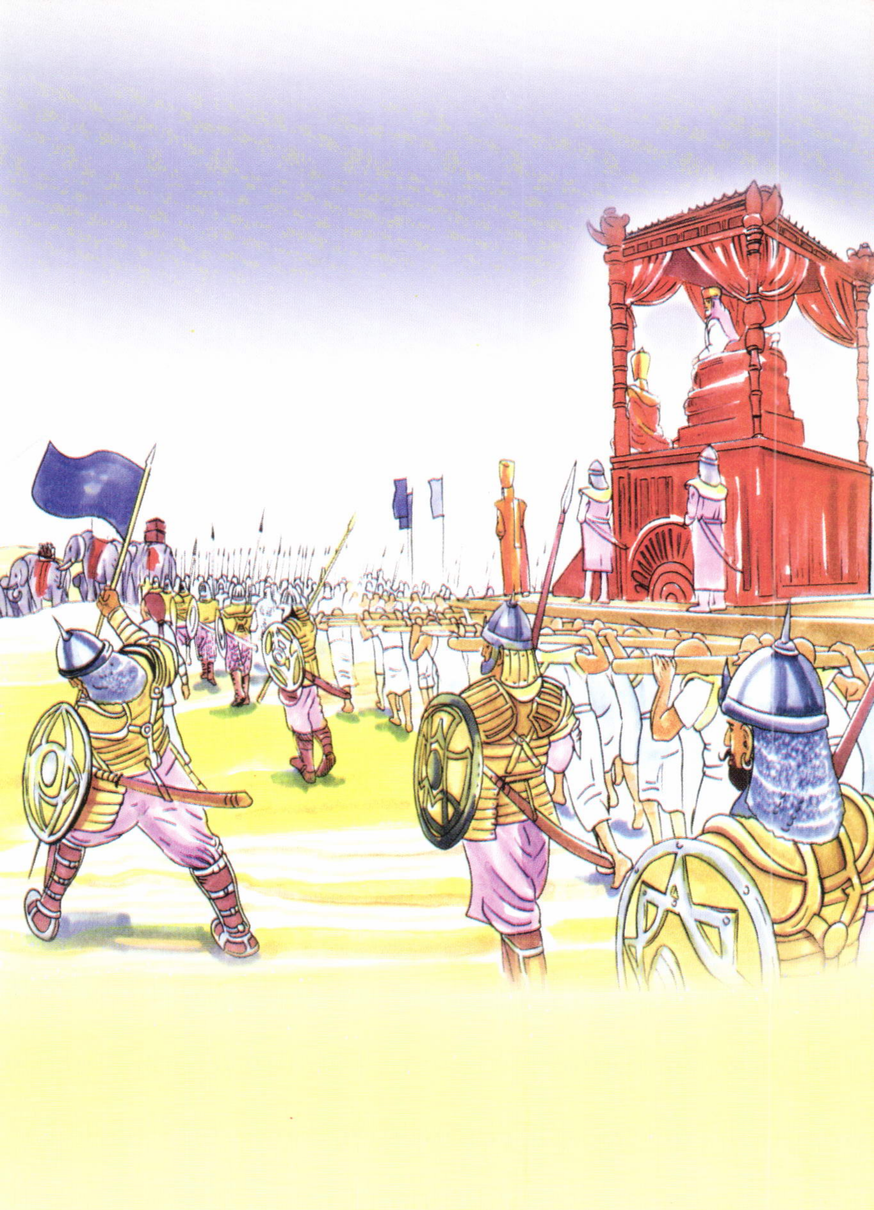
الْعَروسُ في قِمَّةِ سَعادَتِها، وَالْفَرْحَةُ تَنْثُرُ حَوْلَها فَوْحَ أَزاهيرِها، وَهِيَ آمِنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ بِنْتُ الحَسَبِ وَالنَّسَبِ الَّتي بَحَثَ عَنْها عَبْدُ المُطَّلِبِ طَويلاً بَيْنَ فَتَياتِ قُرَيْش، حَتّى وَجَدَ فيها ما يَنْشُدُهُ مِنْ أَخْلاقٍ وَنُضوجٍ تَليقُ بِزَوْجَةِ عَبْدِ اللهِ الشَّيْخِ الْقُرَيْشِيِّ الَّذي تَمَنَّتْ كُلُّ أُسْرَةٍ مِنْ أُسَرِ قُرَيْش لَوْ يَكونُ صِهْراً لها لِما يَحْمِلُهُ مِنْ خِصالٍ جَعَلَتْهُ مُتَفَوِّقاً على كُلِّ شَبابِ جيلِهِ، بالإِضافَةِ إِلى أَنَّهُ ابْنُ سَيِّدِ قُرَيْش الَّذي احْتَلَّ مَكَانَتَهُ العَريقَةَ في احْتِرامِ وَتَبْجيلِ قَوْمِهِ، بَعْدَ أَنْ رَأَوْهُ بِأَعْيُنِهِمْ يَحْفِرُ بِئْرَ زَمْزَمَ وَيَسْقي حُجّاجَ بَيْتِ اللهِ الْحَرامِ مِنْ مائِها، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ باللهِ، الْعابِدُ لَهُ عَلى دينِ إِبْراهيمَ الْخَليلِ (ع)، الصّادِقُ الأَمينُ الشُّجاعُ...



لَمْ تكُنْ هذهِ وَحْدَها صِفات عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلا الأَسْباب الْوَحيدَةَ لِجَعْلِهِ مَحَلَّ ثِقَةِ بَني قَوْمِهِ فَحَسْبُ، فَالْحادِثَةُ الَّتي عاشَها أَهْلُ مَكَّةَ في عامِ وِلادَةِ حَفيدِهِ مِن ابْنِهِ عَبْدِ اللهِ وَزَوْجَتِهِ آمِنَةَ كانَتْ مُعْجِزَةً حَقيقيَّةً ضاعَفَتْ مِنْ مَكانَتِهِ عِنْدَ الْقَوْمِ وَثِقَتِهِمْ بِهِ، وَجَعَلَتْهُ زَعيمَ أَهْلِ قُرَيْش بدونِ مُنافِس.

فَفي الْحَبَشَةِ كانَ يَعيشُ مَلِكٌ اسْمُهُ أَبْرَهَةُ تمكَّنَ الْغُرورُ مِنْ نَفْسِهِ، وَجَعَلَهُ يَسْتَشيطُ غَضَباً كُلَّمَا ذَكَرَ لَهُ النّاسُ ما لِلْكَعْبَةِ الشَّريفَةِ مِنْ مَكانَةٍ مُقَدَّسَةٍ عِنْدَ النّاسِ الَّذينَ كانوا يَقْصِدونَها مِنْ أَقاصي الأَرْضِ لِلتَّبَرُّكِ وَالزِّيارَةِ، وَكانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ هُوَ الموكَل بِسِقايَةِ الْحَجيجِ وَالزّائِرينَ وَهذا مَنْصِبٌ رَفيعٌ لا يَمْنَحُهُ أَهْلُ مَكَّةَ إِلاّ لِمَنْ يَتَميَّزُ بِمَنْزِلَةٍ رَفيعَةٍ وَمَكانَةٍ جَليلَةٍ بَيْنَ الْقَوْم.

حاوَلَ أَبْرَهَةُ أَنْ يَصْرِفَ النّاسَ عَنْ زِيارَةِ الْكَعْبَةِ، وَيَجْعَلَ لِنَفْسِهِ زَعامَةً شَبيهَةً بِزَعامَةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَبَنى كَنيسَةً اسْمُها (اللَّقِيسُ)



وَدعا الْبَشَرَ مِنْ كُلِّ مَكانٍ لِيَحجّوا إِلَيْها، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ إِلاّ الْقِلَّةُ الْقَلائِلُ.

وَلمّا أَعْيَتْهُ السُّبُلُ في اسْتِدْراجِ النّاسِ إِلى تَبْجيلِهِ وَتَعْظيمِهِ وَصَرْفِهِمْ عَنْ كَعْبَتِهِمُ الشَّريفَةِ قَرَّرَ أَنْ يَهْدِمَ الْكَعْبَةَ، وَأَعَدَّ لِهذِهِ الْمَهَمَّةِ جَيْشاً عَظيماً تَتَقَدَّمُهُ الْفِيَلَةُ، تِلْكَ الْحَيَواناتُ الضَّخْمَةُ الَّتي لَمْ يَعْتَدِ الْعَرَبُ عَلى وُجودِها في مَناطِقِهِمْ، وَذلِكَ بِقَصْدِ إِخافَتِهِمْ وَإِرْهابِهِمْ.

سارَ أَبْرَهَةُ بِجَيْشِهِ الْعَظيمِ وَفِيَلَتِهِ، وَما أَنْ تَراءى الْجَمْعُ لأَهْلِ مَكَّةَ حَتّى راحوا يُسابِقونَ الرّيحَ باحِثينَ عَنْ أَمْكِنَةٍ يَلوذونَ بِها، لِتَحْمِيَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ الْقادِمِ مَعَ أَبْرَهَةَ وَجَيْشِهِ.

وَراحَ أَهْلُ مَكَّةَ يُراقِبونَ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، مُنْتَظِرينَ مِنْهُ مَوْقِفاً يَكونُ لَهُمْ دَليلاً عَلى ما يَنْبَغي أَنْ يَفْعَلوهُ في هذِهِ الْمِحْنَةِ.

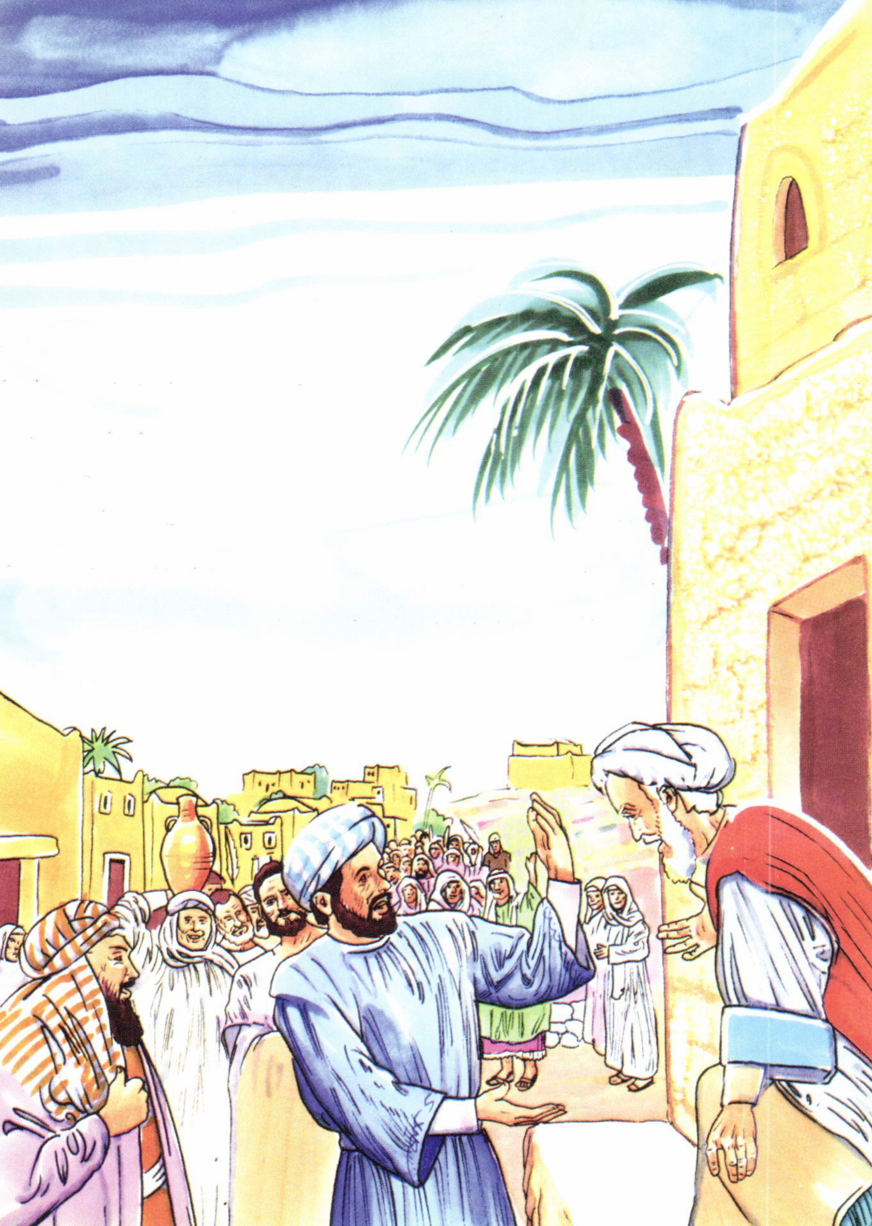
فَفاجَأَهُمْ بِاعْتِصامِهِ قُرْبَ بَيْتِ اللهِ الْحَرامِ، اعْتِصامَ الْمُطْمَئِنِّ الْواثِقِ بِاللهِ.



وَأَسْرَعَ الْغُزاةُ يَبْحَثُونَ عَنْ سَيِّدِ الْقَوْمِ كَيْ يُثْبِتوا لأَهْلِ مَكَّةَ تَفَوُّقَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَانْتِصارَهُمُ الْمُؤَكَّدَ، وَلكِنَّهُمْ وَجَدوا مِنْهُ ما جَعَلَهُمْ يَحْنونَ هاماتِهِمْ احْتِراماً لَهُ وَإِجْلالاً، وَلِذا سَأَلوهُ عَنْ مَطالِبِهِ وَحاجاتِهِ مِنْهُمْ، فَلَمْ يَطْلُبْ مِنْهُمْ أَنْ يَتَراجَعوا عَنْ هَدْمِ الْكَعْبَةِ. بَلْ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُعيدوا لَهُ ما سَبَقَ وَصادَروهُ مِنْ إِبِلٍ كانَ يَمْلِكُها.

كانَ ذلِكَ الطَّلَبُ مُفاجِئاً لأَبْرَهَةَ وَجَيْشِهِ، وَأَحَبّوا أَنْ يَفْهَموا سَبَبَ تَجاهُلِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ نِيَّتَهُمْ في هَدْمِ الْكَعْبَةِ، فَقالَ لَهُمْ: «إِنّي طَلَبْتُ رَدَّ الإِبِلِ لأَنّي صاحِبُها وَمالِكُها، وَلِلْبَيْتِ الَّذي أَرَدْتُموهُ رَبٌّ سَيَدْفَعُكُمْ عَنْهُ وَيَحْميهِ مِنْ سَطْوَتِكُمْ وَبَأْسِكُمْ».

بَعْدَ ذلِكَ أَقْبَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ عَلى بَيْتِ اللهِ الْحَرامِ يَدْعو وَيَسْتَجيرُ، وَيَطْلُبُ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ أَنْ يَهْزِمَ الْمُعْتَدينَ وَيَجْعَلَ كَيْدَهُمْ في نُحورِهِمْ، حَتّى تَراءَتْ لَهُ جُموعٌ مِنَ الطُّيورِ الْغَريبَةِ، وَراحَتْ أَسْرابُها تَجوبُ السَّماءَ دونَ أَنْ يَجِدَ لِذلِكَ تَفْسيراً.

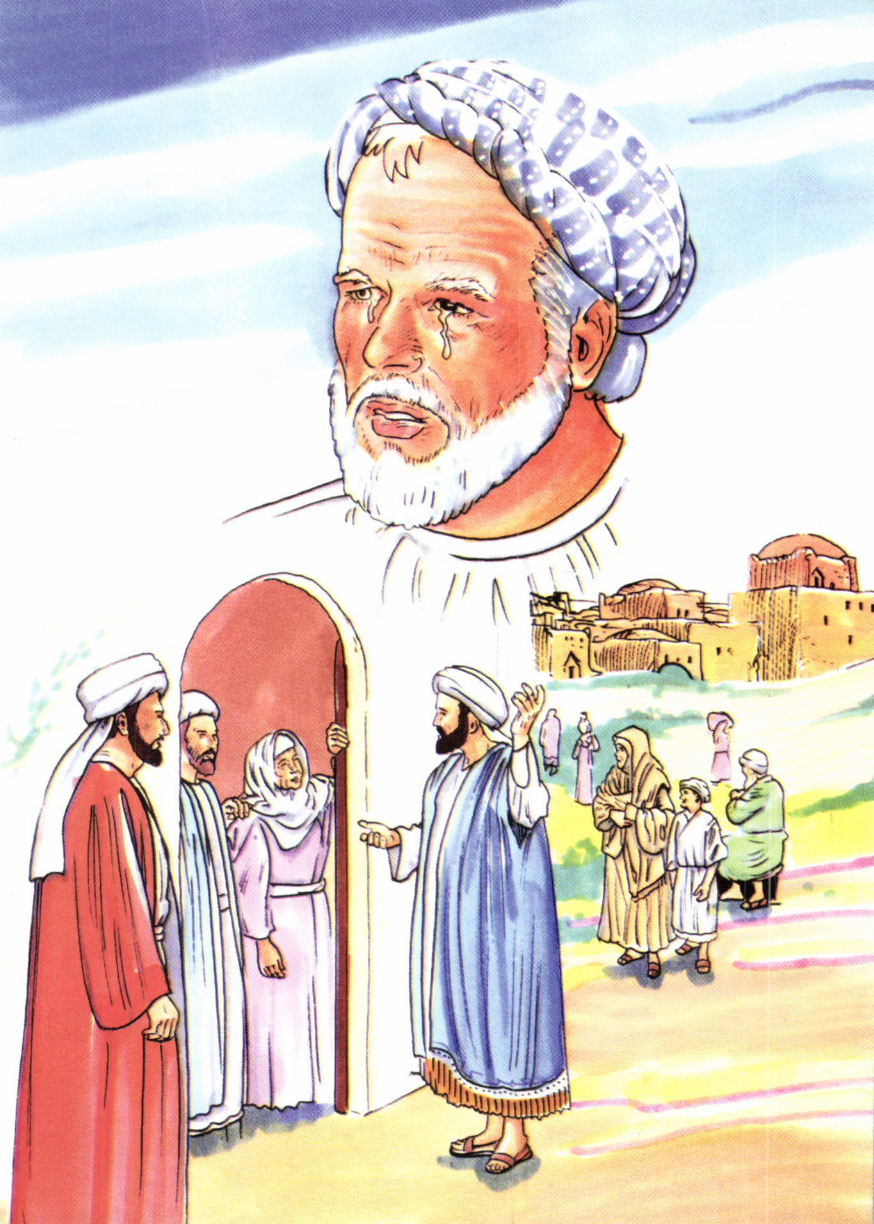


فَأَرْسَلَ وَلَدَهُ عَبْدَ اللهِ يَسْتَطْلِعُ أَمْرَها، فَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ قَصيرٌ حَتّى عادَ عَبْدُ اللهِ يُبَشِّرُ أَباهُ بِمُعْجِزَةٍ إِلهِيَّةٍ تَحَقَّقَتْ!

نَعَمْ! لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ سُبْحانَهُ طَيْراً أَبابيلَ تَحْمِلُ في مَناقيرِها شَيْئاً يُشْبِهُ الْحَصى، تُصيبُ الأَعْداءَ بِهِ فَيَمْرَضونَ بِمَرَضٍ شَبيهٍ بِالْجُدَرِيِّ يَجْعَلُ لُحومَ أَجْسادِهِمْ تَتَناثَرُ وَتَتَساقَطُ. وَكانَ أَبْرَهَةُ مِنْ بَيْنِ أولئِكَ الْمَدْحورينَ الَّذينَ لَمْ يُخَلِّصْهُمُ الْفِرارُ مِنْ عِقابِ اللهِ سُبْحانَهُ وَانْتِقامِهِ مِنْ أَعْداءِ الدّينِ، فَلَحِقَ بِهِمُ الْمَرَضُ إِلى بِلادِهِمْ لِيَموتوا هُناكَ.

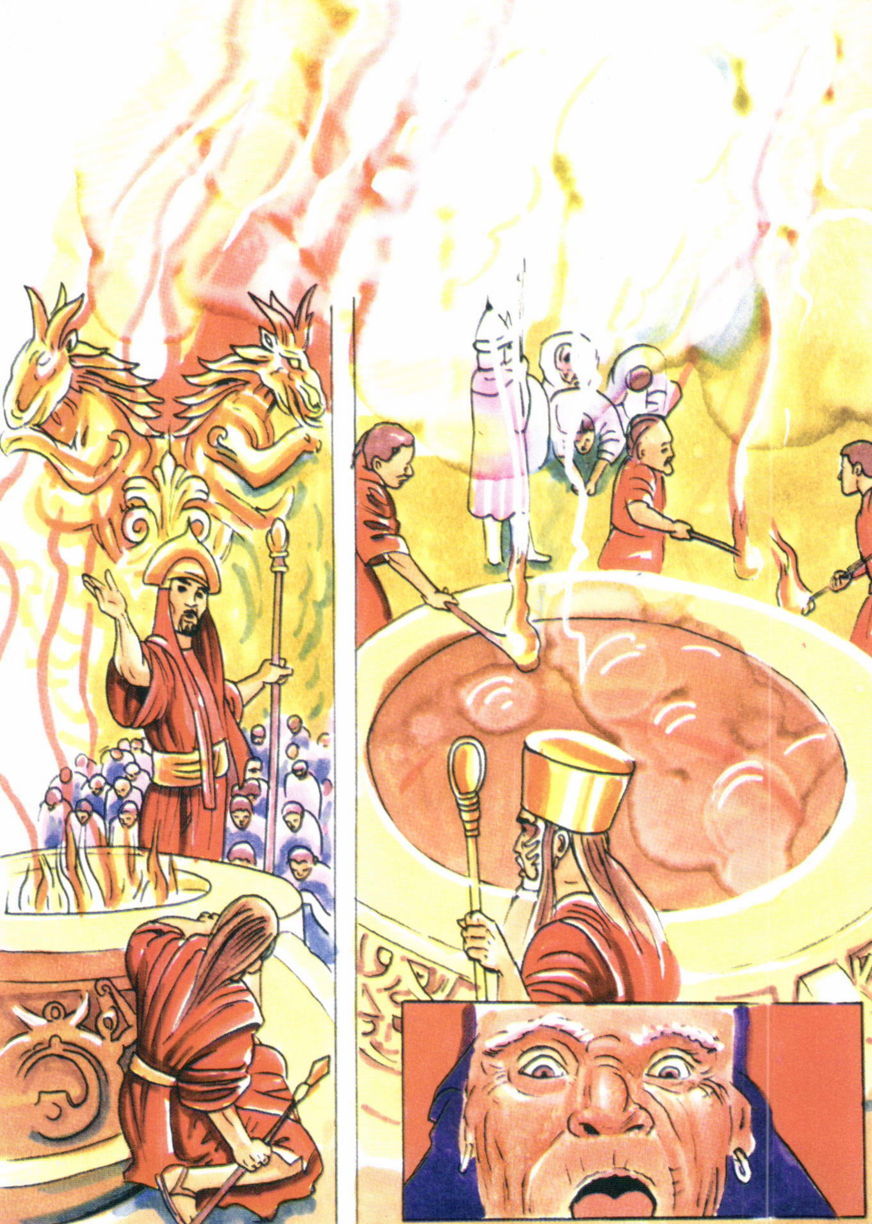
بَعْدَ تِلْكَ الْحادِثَةِ صارَتْ مَكَّةُ مَوْقِعَ تَقْديسٍ وَتَعْظيمٍ أَكْثَرَ مِنْ ذي قَبْلُ، وَصارَ لِسَيِّدِها عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بَعْدَ مَوْقِفِهِ الشُّجاعِ مَكانٌ في كُلِّ قَلْبٍ وَفُؤادٍ، فَازْدادَ الْحاسِدونَ مَعَ ازْدِيادِ الْمُحِبّينَ الْمُوالينَ.

في ذلِكَ الْعامِ تَعاقَبَتِ الأَحْداثُ الَّتي أَضاءَتْ بِها سَماءُ التّاريخِ إِلى الأَبَدِ، وَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ غَريباً، فَالْبُشْرى الَّتي حَمَلَتْها الأَيّامُ لَيْسَتْ كَأَيِّ بُشْرى!



تَهَلَّلَ وَجْهُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِفَرْحَةٍ عَظيمَةٍ حينَ عَلِمَ بِأَنَّ آمِنَةَ زَوْجَةَ وَلَدِهِ عَبْدِ اللهِ تَنْتَظِرُ مَوْلُودَها الأَوَّلَ، وَرَأى النّورَ يَسْطَعُ مِنْ جَبينِها الْمُبارَكِ وَهُوَ يَحْمِلُ دَلالَةً أَحَسَّ بِها قَلْبُهُ. إِنَّ مَوْلوداً عَظيمَ الشَّأْنِ سَيَخْرُجُ إِلى الْحَياةِ بَعْدَ أَشْهُرٍ.

وَقَبْلَ أن تَلِدَ آمِنَةُ خَرَجَ عَبْدُ اللهِ في تِجارَةٍ إِلى بِلادِ الشّامِ، وَفي طَريقِ عَوْدَتِهِ إِلى مَكَّةَ أَحَبَّ أَنْ يَزورَ أَخْوالَهُ في يَثْرِبَ، وَهُناكَ أَصابَهُ مَرَضٌ شَديدٌ، فَأَرْسَلَ أَبوهُ إِلَيْهِ أَخاهُ الْحارِثَ لِيَعْتَنِيَ بِهِ حَتّى شِفائِهِ، لكِنَّ الْحارِثَ لَمْ يَصِلْ إِلى الْمَدينَةِ حَتّى كانَ عبْدُ اللهِ قَدْ تُوُفِّيَ. وَعادَ إِلى مَكَّةَ وَالْحَسْرَةُ تُدْمِعُ عَيْنَيْهِ وَتُبْكي فُؤادَهُ. فَنَقَلَ إِلى أَبيهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ذلِكَ الْخَبَرَ الْمُفْجِعَ، وَإِلى زَوْجَةِ أَخيهِ آمِنَةَ الَّتي فَطَرَ الْحَدَثُ قَلْبَها. وَخَيَّمَ الْحُزْنُ عَلى بَيْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَلى أَهْلِ مَكَّةَ جَميعاً، وَما مِنْهُمْ أَحَدٌ لا يَعْرِفُ عَبْدَ اللهِ، وَيُكْبِرُ أَخْلاقَهُ الرَّفيعَةَ وَخِصالَهُ الْعالِيَةَ.



لَقَدْ مَضى عَبْدُ اللهِ إِلى بارِئِهِ بَعْدَ أَنْ أَوْدَعَ في الْكَوْنِ أَقْدَسَ ثَمَرَةٍ عَرَفَها الْبَشَرُ أَوْ سَمِعوا بِها، وَلَمْ يَكُنْ نورُ وَجْهِ آمِنَةَ وَحْدَهُ الدَّليلَ عَلى قُرْبِ وِلادَةِ آخِرِ أَنْبياءِ الأَرْضِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ(ص).

فَفي أَنْحاءِ الأَرْضِ كُلِّها تَتالَتْ أَحْداثٌ غَريبَةٌ، لَمْ يَجِدْ لَها مُعْظَمُ النّاسِ تَفْسيراً رَغْمَ ما قَدَّمَهُ الأَنْبياءُ السّابِقونَ مِنْ أَحاديثَ عَنْ عَلاماتِ وِلادَةِ نَبِيِّ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّها وَحامِلِ رِسالَةِ آخِرِ الأَدْيانِ. الْعالِمونَ بِذلِكَ وَحْدَهُمْ فَهِموا مَعْنَى هذِهِ الأَحْداثِ، وَانْتَظَرُوا الْحَدَثَ الأَعْظَمَ...

إِنَّ في بِلادِ فارِسَ ناراً مُشْتَعِلَةً مُنْذُ أَلْفِ عامٍ، كانَ أَهْلُ فارِسَ يُقَدِّسونَها وَيَعْمَلونَ بِجُهْدٍ لا يَتَوَقَّفُ كَيْ تَظَلَّ صامِدَةً أَمامَ الثُّلوجِ وَالأَمْطارِ، لِذا نَذَرَ لَها الْمُلُوكُ حُرّاساً كَثيرينَ، لا عَمَلَ لَهُمْ سِوى تَغْذِيَتِها - لَيْلَ نَهارَ - بِالزَّيْتِ وَالْوَقودِ كَيْ لا تَخْمُدَ يَوْماً.

هذِهِ النّارُ خَمَدَتْ فَجْأَةً، وَانْطَفَأَ لَهيبُها يَوْمَ وَضَعَتْ آمِنَةُ وَليدَها الْمُبارَكَ رَغْمَ الْمُحاوَلاتِ الدَّؤوبَةِ لإِعادَةِ إيقادِها



مِنْ جَديدٍ تارِكَةً أَهْلَ فارِسَ غارِقينَ في بَحْرٍ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالذُّهولِ!

لَيْسَ هذا فَحَسْبُ بَلْ إِنَّ بُحَيْرَةَ ساوَةَ الْقَديمَةَ الْكَبيرَةَ، الْمُمْتَلِئَةَ ماءً مُنْذُ عَهْدٍ طَويلٍ طَويلٍ. غيضَ ماؤُها فَجْأَةً، وَفَتَحَتِ الأَرْضُ بَطْنَهَا وَابْتَلَعَتْ كُلَّ ما فيها!

أَمَّا عُروشُ الْمُلوكِ، فَقَدْ هَوَتْ كُلُّها في أَرْجاءِ الأَرْضِ في يَوْمٍ واحِدٍ، وَما بَقِيَ كُرْسِيٌّ مِنْ كَراسي الْمُلوكِ إِلاّ وَانْقَلَبَ فيما صاحِبُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَذْهولاً لا يَمْلِكُ أَنْ يَقولَ أَيَّ شَيْءٍ، وَكانَ الْخَرَسُ التّامُّ قَدْ أَصابَ جَميعَ الْمُلوكِ!

وَفي ذلِكَ الْيَوْمِ أَيْضاً نَزَعَ اللهُ سُبْحانَهُ مِنَ النّاسِ عِلْماً قَديماً، كانوا قَدْ عَرَفوهُ مُنْذُ آلافِ السِّنينَ. كانَ ذلِكَ عِلْمُ الكَهانَةِ وَالتَّنْجيمِ وَأُبْطِلَ سِحْرُ السّاحِرينَ جَميعاً.

أَمّا في مَكَّةَ فَكانَ الْحَدَثُ الأَغْرَبُ، حينَ انْقَلَبَتِ الأَصْنامُ كُلُّها في الْكَعْبَةِ الشَّريفَةِ عَلى وُجوهِها، وَأَسْرَعَ النّاسُ لإِنْقاذِ



ما قَدَّسوهُ وَاعْتَبَروهُ آلِهَةً لَهُمْ يَعْبُدونَها مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ، وَهُمْ في تِلْكَ الأَيّامِ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَفْهَموا مَغْزى هذِهِ الإِشاراتِ، أَوْ إِنْ صادَفَ حُدُوثُها في وَقْتٍ واحِدٍ مَعَ أَحْداثٍ مُشابِهَةٍ في مَناطِقَ أُخْرى مِنَ الْعالَمِ، فَالأَخْبارُ في تِلْكَ الأَيّامِ كانَتْ تَحْتاجُ إِلى وَقْتٍ طَويلٍ كَيْ تَنْتَقِلَ مِنْ مَكانٍ إِلى آخَرَ.

وَلكِنْ يَبْقى مِنَ النّاسِ قِلَّةٌ قَليلَةٌ، إِنَّهُمْ مَن اسْتَطاعوا أَنْ يُفَسِّروا هذِهِ الأَحْداثَ لِما تَوارَثوهُ مِنْ عُلومِ الأَنْبياءِ السّابِقينَ، أَوْ ما أَخْبَرَهُمْ بِهِ الكَهَنَةُ وَالْمُنَجِّمونَ، وَلا نَنْسَ الْمَسيحِيِّينَ وَالْيَهودَ الَّذينَ بُشِّروا بِولادَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (ص) في الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ السّابِقَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَريمِ. بِالإِضافَةِ إِلى ما حَدَّثَ بِهِ الأَنْبياءُ السّالِفونَ، هؤُلاءِ وَجَدوا تَفْسيراً لِكُلِّ هذِهِ الأَحْداثِ، وَارْتَقَبَ الْمُؤْمِنونَ مِنْهُمْ أَنْ يُكَحّلوا عُيونَهُمْ بِطَلْعَةِ مُحَمَّدٍ (ص) بِشَوْقٍ كَبيرٍ.

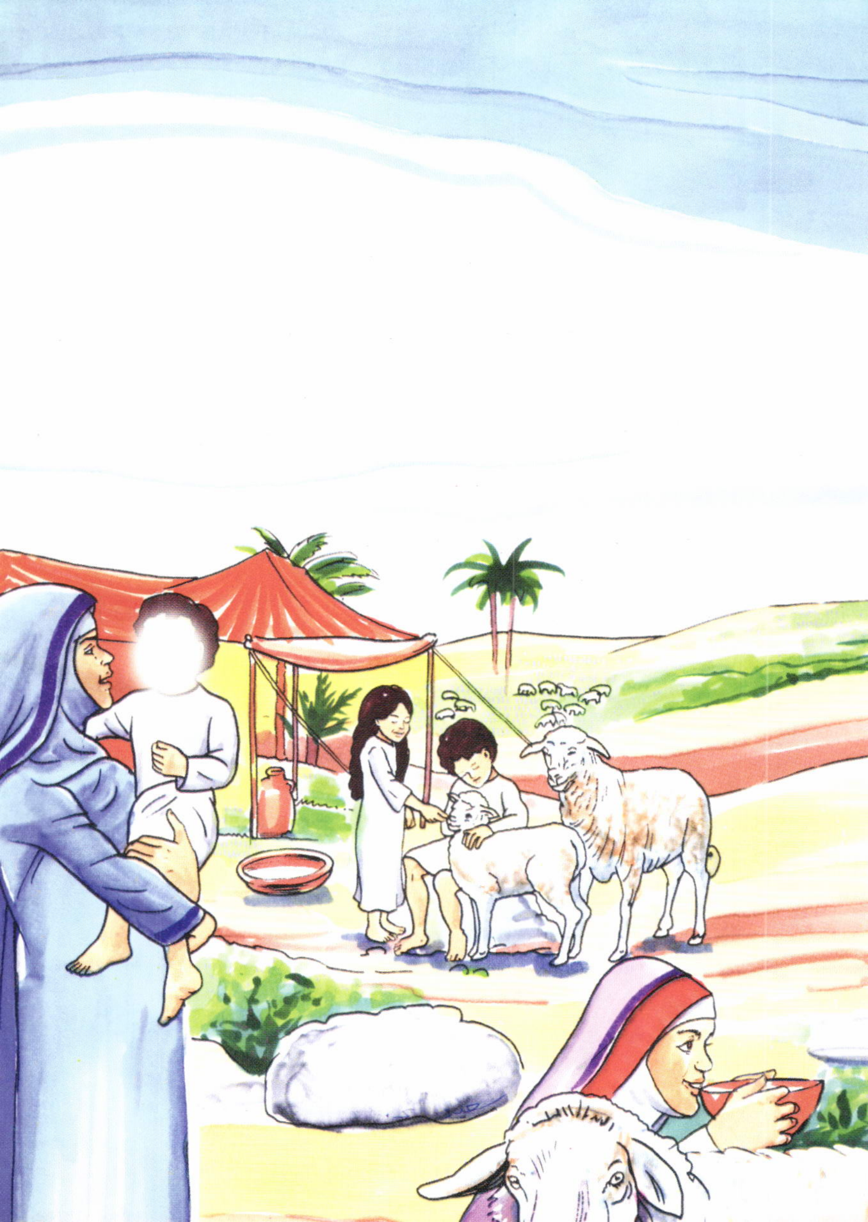
وَبَعْدَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ حَمْلِ آمِنَةَ وَضَعَتْ صَغيرَها، وَما إِنْ رَآهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَوَجْهُهُ يَتَدَفَّقُ نوراً وَضِياءً حَتّى قَرَّتْ عَيْنُهُ، وَارْتاحَ صَدْرُهُ.



لَمْ يَكُنْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَهودِيّاً وَلا مَسيحيّاً. كانَ يَدينُ بِدينِ إِبْراهيمَ الْخَليلِ (ع)، وَفي صَدْرِهِ يَقينُ بِأَنَّ لِهذا الْمَوْلودِ شَأْناً عَظيماً، بِالإِضافَةِ إِلى أَنَّهُ وَلَدُهُ مِن ابْنِهِ الرّاحِلِ عَبْدِ اللهِ الَّذي كانَ أَحَبَّ أَبْنائِهِ إِلَيْهِ، لِذا جَعَلَ مِنْ هذا الطِّفْلِ شُغْلَهُ الشّاغِلَ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ مَعَ أُمِّهِ كَيْ يُهَيِّيءَ لَهُ ما أَمْكَنَهُ مِنْ مُتَطَلِّباتِ الْحَياةِ، بَعْدَ أَنْ أَسْماهُ مُحَمَّداً.

وَحَتَّى يَنْمو هذا الصَّغيرُ في طَبيعَةٍ صِحِّيَّةٍ، تُقَوّي جِسْمَهُ وَمَناعَتَهُ، وَكَيْ يَتَعَلَّمَ الْفَصاحَةَ وَالْكَلامَ الْبَليغَ، أَحَبَّ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَنْ يَفْعَلَ ما كانَ يَفْعَلُهُ الْعَرَبُ مِنَ الأَشْرافِ، وَيُرْسِلَ حَفيدَهُ إِلى الْبادِيَةِ مَعَ إِحْدَى الْمُرْضِعاتِ الْقادِماتِ مِنَ الصَّحْراءِ إِلى مَكَّةَ لِهذِهِ الْغايَةِ.

وَمِنْ أولئِكَ النِّساءِ أَقْبَلَتْ نِسْوَةُ بَني سَعْدٍ وَبَيْنَهُنَّ حَليمَةُ السَّعْدِيَّةُ بِنْتُ أَبي ذُؤَيْبٍ، الَّتي رَأَتْ غَيْرَها مِنَ النِّساءِ يُعْرِضْنَ عَنْ هذا الصَّبِيِّ لِيُتْمِهِ وَفَقْرِهِ. وَرَأَتْ أَنَّ الْقُرَشِيّاتِ يُعْرِضْنَ عَنْها لِضَعْفِها وَهُزالِها.



لِذا وَجَدَتْ في احْتِضانِ مُحَمَّدٍ ضالَّتَها، مِنْ دونِ أَنْ تَعْلَمَ ما سَيَحْمِلُهُ إِلَيْها ذلِكَ الاحْتِضانُ مِنْ خَيْرٍ وَيُمْنٍ وَبَرَكَةٍ.

وَعادَتْ حَليمَةُ إِلى الصَّحْراءِ وَهِيَ عالِمَةٌ بِأَنَّ الْقَحْطَ وَالْجَفافَ لَمْ يَتْرُكْ لَها ما تُطْعِمُ بِهِ أَطْفالَها، وَتَشُدُّ بِهِ عودَها، فَكانَتِ الْمُفاجَأَةُ أَنَّ الأَرْضَ الْمُجْدِبَةَ أَخْصَبَتْ، وَالْغَنَمَ الْعَطْشى شَبِعَتْ، وَتَدَفَّقَ الْخَيْرُ حَتّى عَمَّ وَشَمَلَ الْقَريبَ مِنْها وَالْبَعيدَ.

أَمّا عَنْ تَعَلُّقِ حَليمَةَ بِهذا الطِّفْلِ فَذلِكَ وَحْدَهُ قِصَّةٌ أُخْرى، إِنَّ لَهْفَةً غَريبَةً تَنْمو في أَعْماقِها تَجْعَلُها تُؤْثِرُ مُحَمَّداً (ص) عَلى بَقِيَّةِ صِغارِها، وَتَخافُ مِنَ اللَّحْظَةِ الَّتي يُمْكِنُ فيها لأُمِّهِ آمِنَةَ أَنْ تُعيدَهُ فيها إِلَيْها.

وَسُرْعانَ ما انْقَضى عاما الرِّضاعَةِ، وَصارَ الْواجِبُ يَقْضي عَلى حَليمَةَ بِأَنْ تُعيدَ الصَّغيرَ إِلى أُمِّهِ، فَرَجَعَتْ بِهِ وَالدَّمْعُ يَتَلأْلأُ في عَيْنَيْها، وَالأَمَلُ يُخَفِّفُ مِنْ أَساها، فَهَلْ تَرْضى أُمُّهُ أَنْ تُعيدَهُ إِلَيْها مِنْ جَديدٍ؟



سُرْعانَ ما انْقَضَتْ أَيّامُ حَليمَةَ السَّعْدِيَّةِ الْجَميلَةَ وَمُحَمَّدٌ (ص) في حِضْنِها يَنْمو وَيَتَعَلَّمُ الْفَصاحَةَ إِلى أَنْ جاءَ الْيَوْمُ الَّذي صارَ عَلى حَليمَةَ أَنْ تُعيدَهُ إِلى حِضْنِ أُمِّهِ، فَأَوْدَعَتْها إِيّاهُ وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْها.

وَقَرَّتْ عَيْنُ آمِنَةَ بِعَوْدَةِ ابْنِها إِلَيْها، وَلكِنَّ مُحَمَّداً (ص) لَمْ يَهْنَأْ في حِضْنِ أُمِّهِ زَمَناً طَويلاً، إِذْ تُوُفِّيَتْ أَثْناءَ زِيارَتِها إِلى مَكانٍ يُعْرَفُ بِالأَبْواءِ وَاقِعٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدينَةِ وَهِيَ في طَريقِها إِلى زِيارَةِ أَهْلِها في يَثْرِبَ.

في ذلِكَ الْوَقْتِ كانَ عُمْرُ مُحَمَّدٍ (ص) سِتَّ سَنَواتٍ. فَأَحاطَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِحَنانٍ وَعَطْفٍ فائِقَيْنِ، وَفي صَدْرِهِ ثِقَةٌ بِأَنَّ لِمُحَمَّدٍ (ص) مُسْتَقْبَلاً هامّاً وَشَأْناً عَظيماً. وَهَذا ما كانَ يَقولُهُ دائِماً لِمَنْ كانَ يَحْمِلُهُ مِنْ أَعْمامِهِ حينَ يَراهُ يَثِبُ عَلى فِراشِ جَدِّهِ سَيِّدِ بَني هاشِمٍ أَثْناءَ جُلوسِهِ بَيْنَ أَبْنائِهِ وَأَشْرافِ مَكَّةَ قُرْبَ الْكَعْبَةِ الشَّريفَةِ.

لَمْ تَكُنِ الأَحْداثُ الْجارِيَةُ في زَمَنِ كَفالَةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِحَفيدِهِ مُحَمَّدٍ (ص) إِلاَّ لِتُؤَكِّدَ عَلى ما كانَ يُنْبِئُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ الْقَوْمَ بِهِ.

